

صدى الكفاح والمقاومة ضد الصهاينة

في قصيدة "الفداء والدم" للجواهري

صادق فتحى دهكردي^١، عبدالرسول إلهائي^٢

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي، قم، إيران

٢. دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي، قم، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/١١/١٠؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٣/١٣)

الملخص

بعث الجواهري في قصيدة "الفداء والدم" الأمل في نفوس الثوار والفدائيين الفلسطينيين والعرب، ولعب دوراً بارزاً في حث المناضلين على مقارعة العدو، وتوعية الشعوب العربية والإسلامية وفضح تواطؤ الحكام المتخاذلين والأطراف التي تعول على الحلول السلمية، كما أنه رسم خارطة النصر على الصهاينة عبر الكفاح والعمليات الاستشهادية. ويوضح هذا البحث رؤية الشاعر حيال القضية الفلسطينية عبر دراسة صدى الكفاح والصمود في قصيدة "الفداء والدم"، والوقوف أمام المضامين الثورية والصور الفنية الجمالية التي تضمنتها، وذلك بالمنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على ذكر نماذج شعرية من القصيدة ثم دراستها والتعليق عليها. ومن النتائج التي توصل إليها أنّ الجواهري قد ضمن قصيدته شتى أنواع الصور البيانية الموحية فاستفاد من الكناية والتشبيه لاسيما التشبيه التمثيلي والمرسل المفصل، وأيضاً الاستعارة خاصة المكنية منها، للأغراض البلاغية بما فيها المبالغة وتمية الخيال لدى المتلقي ليحسّر بشدة مأساة فلسطين وضرورة التحرك لإنقاذها قبل فوات الأوان. واستفاد أيضاً من رموز الطبيعة (الليل، الكواكب) ورمز المكان (فلسطين)، ورموز ذات دلالات تراثية ودينية للتحريض على مقارعة العدو الصهيوني وتحرير الأراضي المحتلة. كما أنه استخدم شتى أساليب الإنشاء والتعبير مثل الاستفهام والنداء وظاهرة التكرار خاصة التكرار اللفظي لتكريس الفكرة لدى المتلقي وتعظيم الجهاد والتضحيات، ونرى جمالية أسلوب الخطاب في القصيدة حيث يخاطب مرارا أحد الشهداء ويذكر ما أصاب فلسطين والأمة من وبيلات.

الكلمات الرئيسية

الجواهري، الشعر، فلسطين، الكفاح، الرموز، الصور البيانية.

مقدمة

مرّ احتلال فلسطين بمراحل ومحطّات كثيرة لكل حقبة منها ميزات ومواصفاتها ف«أطلق العرب اسم "النكبة" على سقوط فلسطين عام ١٩٤٨م، واسم "النكسة" على هزيمة جيوشهم أمام الكيان الإسرائيلي الغاصب عام ١٩٦٧م» (حينو، ٢٠١٣: ٢). الأمر الذي أدى بالشعراء والأدباء العرب بمن فيهم الشاعر العراقي "محمد مهدي الجواهري" ليسخّروا فنهم لتشجيع الانتفاضات الفلسطينية وحث الفدائيين على المضي قدماً في مقارعة العدو الصهيوني. فحاول شبان فلسطين السليب بعد فاجعتي "النكبة" و"النكسة" أن ينهضوا لاسترجاع أراضيهم المحتلة ظلماً بتأثير عوامل خارجة عن إرادتهم وبدوافع استعمارية بحتة، والتي كانت قد حدثت لتقاعس وتواطؤ رسمي عربي. الأمر الذي لاقى ترحيباً شعبياً.

والجواهري الشاعر والصحافي الذي كان مدركاً لما يدور حوله من تطورات، ساير وواكب القضية الفلسطينية عن كثب وتناولها باتجاهين؛ الاتجاه العربي والاتجاه الفلسطيني «ويقوم الاتجاه العربي على أساس علاج القضية الفلسطينية وتقليص أزمته عن الطريق العربي كمشكلة قومية لا تحلّ إلّا على الصعيد القومي، ويقوم الاتجاه الفلسطيني على أساس حل القضية الفلسطينية على صعيد فلسطيني، ويلقي عبء تحريرها على الفلسطينيين أنفسهم، يدفع بهم إلى ميدان النضال، ويصدّرهم جبهات المعركة» (الصغير، ١٩٦٨: ٥٩).

إن عصر الجواهري وبيئته متسمان بالأحداث السياسية والاجتماعية الجسام، والشاعر يمتاز بقوته الشعرية المرفهة، ويعتبر من المهتمين بقضايا الشعب (مظفر، ١٤٣٦: ٦٤٦). فاعتنى الجواهري بالقضايا الوطنية، والقومية، والعربية، والإسلامية وعلى رأسها تطورات بلده العراق والقضية الفلسطينية واهتم بها اهتماماً شاملاً حيث شارك المعنيين أفراحهم وأتراحهم وكان يرى في كل مناسبة فرصة ليطلق العنان لسانه ليسجّل المواقف التي كان يريدها ويحذر من مغبة المخاطر التي كانت تحيط بالدول العربية والإسلامية. وهذا ما نجده في قصيدة الفداء والدم التي أنشدها بمناسبة ذكرى استشهاد القائد الفتحاوي "صبحي ياسين" حيث أقيم له حفل تأبيني بالعاصمة العراقية بغداد.

والأسئلة التي تطرح نفسها هي:

١. كيف يمكن فهم التزام الجواهري بالقضية الفلسطينية من خلال دراسة قصيدة "الفداء والدم"؟

٢. ما هي المضامين التي جاء بها الجواهري في قصيدة "الفداء والدم"؟
٣. ما هي الرموز والصور الجمالية التي استخدمها الشاعر في قصيدته هذه؟
- وفرضيات البحث هي:
١. يعتقد الشاعر أنه لا مجال للتكاسل والنأي بالنفس عن القضية المركزية للعالم الإسلامي، وإنما درب "الفداء والدم" أو "النضال" هو الكفيل بتحرير القدس الشريف من دنس الاحتلال الصهيوني.
٢. حثَّ الجواهري الفدائيين الفلسطينيين على مواجهة العدو الصهيوني، ومواصلة النضال، وخوض غمار العمليات الفدائية ضد العدو، كما أنه صرخ بما أوتي من قوة في وجه الحكام العرب المتخاذلين مع الاستكبار العالمي ونوّه إلى أنه لا بد من تقديم التضحيات من أجل تحقيق الأهداف السامية والنبيلة.
٣. استفاد الجواهري من التشبيه لاسيما التشبيه التمثيلي والمرسل المفصل، وأيضاً الاستعارة خاصة المكنية منها للأغراض البلاغية، واستخدم أيضاً رموز الطبيعة (الليل، الكواكب) ورمز المكان (فلسطين)، ورموزاً ذات دلالات تراثية ودينية للتحريض على مقارعة العدو.
- وأما بالنسبة لخلفية البحث فهناك دراسات مختلفة عن شخصية الجواهري وأسلوبه والظواهر المختلفة في شعره لما له من أهمية وشأن في الأدب العربي، وسلّطت الأضواء على جوانب مختلفة من شخصيته وأعماله الأدبية. لكننا لم نجد دراسة حول قصيدة "الفداء والدم" للشاعر لدى بحثنا في المجلات العلمية داخل الجمهورية الإسلامية الإيرانية. كما أن بحثنا في موقع magiran.ir لم يجد نفعاً كذلك. وأما في الدول العربية فهناك كتاب تحت عنوان "فلسطين في شعر الجواهري وقراءات في الأدب الحديث" للباحث "محمد حور" يتكون من خمس دراسات في الأدب العربي الحديث، خصّص إحداها بفلسطينيات الجواهري وتطرق إلى قصيدة "الفداء والدم" في خمس صفحات، شكل "ذكر أبيات القصيدة" الظاهرة البارزة فيها، ولم يتطرق إلى القضايا الفنية والأدبية في دراسته هذه. كما أن الدراسة ذاتها من هذا الكتاب قد نشرت تحت عنوان "فلسطين في شعر الجواهري" في موقع "مؤسسة فلسطين للثقافة" على الشبكة العنكبوتية. وقد نشر "محمد توكنا" بحثاً تحت عنوان «محمد مهدي الجواهري... الشاعر الذي عاش جراح فلسطين منذ أول جرح» في موقع "بيت فلسطين للشعر" قد كرّر فيه ما جاء في بحث محمد حور وقد أشار إلى ذلك في قسم المراجع والإحالات.

مكافحة الصهيونية في قصيدة "الفداء والدم" (١٩٦٨م)

بعد مضي عام على "نكسة حزيران ١٩٦٧م" نظّمت المنظّمات الفدائية الفلسطينية حفلاً تأبينياً للشهيد الفتحاوي "صبحي ياسين" في "قاعة الشعب" ببغداد خريف ١٩٦٨م. ودُعي الشاعر محمد مهدي الجواهري للحضور وإلقاء قصيدة بالمناسبة. فكانت قصيدته الخالدة "الفداء والدم" في ١٣٠ بيتاً (الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩١/٥)، واستغل الشاعر هذه المناسبة للإشادة بتضحيات الفدائيين ولفت الأنظار إلى قضية العالم الإسلامي المركزية ألا وهي القضية الفلسطينية، ليتحدث من بداية القصيدة هذه حتى نهايتها عن جدوى التضحيات والدعوة إلى الثورة، والصمود، والصبر، والعزيمة، والوحدة، وحث الشباب على الالتحاق بصفوف المنظمات الفدائية ومقارعة العدو الصهيوني مستخدماً الصور البيانية والرموز لتكريس الفكرة لدى المتلقي. والشهيد صبحي ياسين هو مناضل قسامي شارك سنة ١٩٣٥ في ثورة القسام وعقب نكبة ١٩٤٨م قاد مجموعة صغيرة من المتسللين في الأردن وقطاع غزة، ودرّب مجموعة من الفدائيين الذين قاموا بعمليات داخل فلسطين المحتلة. لكنه اغتيل في ١٩/١٠/١٩٦٨م في ظروف غامضة بالأردن (سما، ٢٠١٣: ١).

تعظيم الجهاد والتضحيات

استهل الجواهري رائعته هذه بتعظيمه للفداء وإكباره له، واصفاً الفدائي مظهراً من مظاهر الخلود، وصورة صادقة للتضحيات في سبيل الوطن والذود عن حياضه، وأن المناضل ليس إلّا أسوة وقدوة لشعبه حيث اختار أن يكون في قائمة الرجال القلائل الذين ضاقت صدورهم مما يجري حولهم من ظلم واضطهاد، فرغبوا بقطع عهد على أنفسهم بخوض ساحات النضال ومكافحة الاحتلال، باذلين في سبيل ذلك أعلى ما لديهم ألا وهي الروح المطمئنة، فرخصوا بها دفاعاً عن الوطن والعزة والكرامة:

جلّ الفداءُ وجلّ الخلدُ صاحبهُ ضاقُ الفداءُ وما ضاقتُ مذاهبهُ
لونُ من الخلقِ والإبداعِ يُحسنهُ خلّقُ تُصاغُ جديداً رغائبهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٣/٥)

ويستمر الجواهري في الإشادة بروح التضحية والنضال واصفاً الفدائي بأنه «الرجل السمح الذي لا نظير له» بحيث لم تغره الدنيا وما فيها من مطامع ومآرب، مخلصاً عمله في سبيل الله وتحرير الوطن. ولم يشغله شاغل عن هدفه بل تبقى أعينه شاخصة نحو الهدف المنشود

ويتخذ من ضحايا هذا الدرب كواكب تضىء له طريقه وأن رواد هذه المسيرة يبدلون ظلمة القضية إلى شمس الضحى ويبددون اليأس ويفتحون آفاقاً مشرقة أمام القضية الفلسطينية:

وذروة من سماح لا كفاء لها إلا مطامح من عزت مطالبه
في الفدي من جبروت الليل رهبتُه وعنده من ضحايا كواكبه
يتلوه رأد الضحى شغفاً وتقدمه من روعة الفجر زحافاً مواكبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٣/٥)

ويوظف الشاعر في البيت الثاني من هذه الأبيات «الليل» من الرموز الطبيعية فيتجلى الليل هنا بالتتبن الذي له جبروت ورهبة، للتعبير عن الاحتلال والمصائب والمآسي التي جلبها للفلسطينيين. فاتخذ الشاعر من المناضلين والفدائيين كواكب تزيح جبروت ورهبة هذا الليل لتبدل ظلمة القضية الفلسطينية إلى شمس الضحى ويتبدد اليأس ويشرق الفجر على الفلسطينيين الذين يعانون تتبن الليل. فتجلت دلالة الليل لتسليط الضوء على حالة الحزن الناشئة من احتلال الأرض والتشاؤم حيال مستقبل فلسطين.

ثم يعود ويتغنى الجواهري مرة أخرى بـ"جل الفداء" وهي «عبارة ما فتى الشاعر يرددها غير مرة، إعجاباً بها، وفتنة بصانع الفداء، وهو الشهيد الذي يخلف فراغاً وأماً وحسرة في نفوس أهله وشعبه، وإن هذه الآلام ووقعها في النفوس لا يقل في تأثيره عن اندفاع المقاتلين الأبطال تجاه أعدائهم يفتكون بهم، وينكلون بفلولهم. لذا وجدنا الشاعر يحدثنا عن الفداء وجلاله» (حور، ١٩٩٨: ١٠٨) ويشيد بالعمليات الفدائية والفدائيين حتى وإن استشهدوا في سبيل غايتهم. وأن ضجيج الحزن والتأثر لمصارع الشهداء من الفدائيين، إنما هو صدى ورجع وشبيه بالضجيج الذي تحدثه كتائب جيوشهم وهي تنصب على أعدائهم:

جلّ الفداء وإن ضجّت مآتمُه على الشهيد وإن رنت نواديه
إنّ الزمّازم في الدنيا لمصرعه صدى الزمّازم صبّتها كتائبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٣/٥)

وعاد الشاعر وتغنى للمرة الثالثة خلال الأبيات الثمانية الأولى من هذه القصيدة بعبارة "جل الفداء" مكرساً الإشادة بالتضحيات والعمليات الفدائية وأنّ الفداء «ما ينفك مأربة لكل مستبسل» وأنّ الفدائيين سيحققون النصر المبين دون أدنى شك، لأنهم نذروا أنفسهم من أجل قضية أمتهم وتحرير الأرض المغتصبة والمسجد الأقصى المبارك فيقول:

جَلَّ الفداءُ فما ينفكُّ مآربَةً لكلِّ مستبسلٍ أعيَت مآربه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٣/٥)

ويبدو تكرار عبارة «جل الفداء» التي أوردها الشاعر في مطلع قصيدته واضح في المقطع الأول من هذه القصيدة. فظاهرة التكرار إحدى السمات البارزة في بناء القصيدة عند الجواهري. فعمد شاعرنا إلى تكرار هذه العبارة لتكريسها في ذهن المتلقي وتعظيم الجهاد والتضحيات. فراح يمجّد الفداء ويتلذذ بتعظيمه وتكراره على مسامع زملاء الشهيد صبحي ياسين، ليحرّضهم على المضي قدماً في سبيل مقارعة العدو الصهيوني وأخذ الثأر لفلسطين وتحريرها من دنس الصهيونية.

وظل يدعو الشعب الفلسطيني إلى الفداء ومواصلة النضال من أجل تحرير الوطن والذود عن حياضه في مواجهة مما يتعرض له من قبل الصهيونية العالمية، ويستحضر النبي "آدم" ﷺ باعتباره رمزاً للكائن البشري والإنسانية. ويؤكد أن الإنسان لا يرقى ببلاده إلّا بدفع الغالي والرخيص، وأن درب الفداء والدم كان منذ خلقه أبي البشرية سيدنا "آدم" ﷺ ومازال إلى أبد الدهر ملاذاً للدين وللحياة وللشريعة جمعاء، تلو وتسمو به وأن المستقبل لا يزدهر إلّا بفضل النضال ومكافحة الأعداء، وهذا الطريق هو الدرب الذي ينبغي على الفدائيين الفلسطينيين السير فيه دون غيره:

حوى النضالَ فسيحاً ما به غلّق ولا بمائعةٍ رخواً رحائبه
على حفايفه من شعبٍ مصايرُهُ وبين جنبيه من أمرٍ عواقبه
من عهد آدمٍ والدينيا تلوذُ به تُعلي مرافهها الجلى متاعبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٤/٥)

ويستمر في وصف درب الجهاد والفداء وسالكيه مؤكداً «أن درب الجهاد - حسب تعبير الجواهري - سرمدى أبديّ يمشي الكميُّ على إثر الكميّ» في هذا الطريق ويحتذي اللاحق حذو السابق ويجري على سننه. وليس أمامه إلّا النّصر المؤزّر أو الخلود» (بهاء الدين ومرادبان، ٢٠١١: ٣٥٦):

يمشي الكميُّ على إثر الكميِّ به للخلد سياتِ ناجيه وعاطبه
ويستجدُّ البناة الصيّدُ تلهمهم غرائب الفكر، خلاقاً، غرائبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٤/٥)

ثم يصف جباه الشهداء بأنها "تشع نوراً" و«تضيء سوح الفداء ومروج المروءات» مشبهاً إياها بـ"الحباحب" رمزاً للإنارة حيث تضيء الحقول والمروج ليلاً، وهكذا يصبح الفدائي والشهيد يرسم خارطة الطريق لأبناء أمتة التواقين للحرية والكرامة:

غُرُّ الجِبَاهِ عَلَى الْغَبْرَاءِ تُسْرِجُهَا مَرَجُ الْمَرْوَاتِ ضَوُّهُ حُبَابِهِ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٦/٥)

وإن هؤلاء الأبطال الفدائيين كانوا يسلمون حشرات الموت ويتجرعون هائنين لمجرد أن من استشهدوا من أجله ووهبوه جراحهم وهو وطنهم السليب قد ضمّد جراحهم بما أهبّ عليها من نساتمه، وبما لفّها من ترابه ورماله. ولا يعني هذا أن الفدائيين كانوا يخوضون ساحات النضال من أجل الشهادة فحسب، بل هم جاهدوا بغية العودة إلى جنان وطنهم بعد تحريرها من دنس الاحتلال ولكن حتى إذا استشهدوا في سبيل هذا الهدف، فإن الموت لا يعني نهاية الحياة بل هو انتقال من الحياة الفانية إلى حياة الخلد. ولم يعد هناك فرق عندهم: النصر بالعودة للجنة في الحياة الدنيا، أو الشهادة للفوز بالحياة الأخرى. وهذا هو مفهوم "إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ" الذي ورد في القرآن الكريم ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (التوبة/٥):

تسربلوا رملّة الوادي يحنّطهم نسيمه، وتواربهم مساحبه
وأسلموا حشراتٍ جدّ هائنة إن الذي وهبوه الجرح عاصبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٦/٥)

ويستمر في تصوير اللحظات الأخيرة للفدائيين وما يشاهدونه قبيل مفارقة الحياة الدنيا بحيث لمح "بيارات" الليمون والبرتقال كانت ترف عليهم رفيف الموت نفسه حتى لا يدنو رائحتها إلا ريثما يرتد طيفه وهو شاحب متضائل ليختم القطعة هذه من رائحة الفداء والدم بتسليط الضوء على «روعة البطولات وتصاعدها في مكافحة العدو الصهيوني بعد ما ابتدأت مسترسلة هينة» ونجد في البيت الأخير كناية عن البطولات وتصاعدها:

ولمح "بيارة" لم يَدُنْ رائعه حتى انثنى كرفيف الموت شاحبه
يا روعة البحر قد جاشت غواربه من بعد ما لان وانداحت جوانبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٧/٥)

تشجيع المناضلين على مواصلة الكفاح والتأييس من الحلول السلمية وبعد دعوته أبناء الشعب الفلسطيني إلى الثورة ومكافحة العدو الصهيوني، افتتح الجواهري صفحة وقطعة جديدة أراد من خلالها أن يعبر عن قوة المد الفدائي، وروعة انتشاره في أرجاء الأرض وتجرّ الوعي العالمي على زخم الفداء والبطولات، ثم ينعطف الشاعر من ذلك إلى مناغاة الفصائل الفلسطينية، والطلائع الزاحفة منهم ويخص بالذكر منها حركة "فتح" و"منظمة التحرير" وقوات "العاصفة" التي تعتبر الذراع العسكري التابع لحركة "فتح" وكأنه يدعو الشباب الفلسطيني للانضمام إلى الحركات الجهادية والمنظمات الفدائية في سبيل تحرير الوطن السليب:

تَجَبَّرَتْ جنباتُ الليل عن نَعْمٍ حُلُو كرجع صدى الأحلام ثائبه
ناغى "بفتح" و"تحرير" و"عاصفة" كما تُناغي أخوا وجد حبايبه
وخلتني مرهفاً سَمِعاً لأنجية في المشرقين، مُرَّاتٍ، تجاوبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٧/٥-٢٩٨)

ويصف "شباب فلسطين" بـ"مرح" في معاطاة الموت، فهو يسقيه أعداءه وغاصبي وطنه قدر ما يشرب منه، وأن هؤلاء الشباب يتسابقون مع الدهر ويقبلون نحو المنية بصدور عارية بعد ان أتعبت ظنونهم الشهور والأعوام واستنفدت صبرهم، وأنهم لجؤوا إلى هذا الخيار بسبب التسويات والماطلات السياسية، ما أدى بهم إلى أن يملأوا الاستسلام والخضوع ويات إرادتهم بأيديهم ولا ينتظرون أحداً للقيام بواجب النضال لتحرير أراضيهم المسلموبة بل أخذوا هذه المهمة على عاتقهم:

مرحى شباب فلسطين به مرح مع الردى فهو ساقبه وشاربه
مرحى لمستيقين الدهر أزعجهم مطائله وأملتهم ركائبه
يلوي ظنونهم شهر وقابله ويمتري صبرهم عام وعاقبه
مسمرين على وعد بلا كنف من ضامنيه، ولا حول يصاقبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٨/٥)

واسترعى "فلسطين" المكان انتباه الشاعر وجذبه خيال الجواهري نحوه إدراكاً منه أن جوهر صراع القضية الفلسطينية هو صراع على الأرض وأن المكان المتجلي في أرض فلسطين هو لب الصراع مع العدو فاستدعى شاعرنا فلسطيناً بدلالاتها الرمزية وجردها من دلالتها الطبيعية المعروفة باعتبارها مجرد مكان، وشحنها بدلالات جديدة ترمز إلى القضية الفلسطينية والوطن العربي والصراع الدائر بين الأمة الإسلامية من جهة والصهيونية

وحلفائها الغربيين من جهة أخرى. وأضاف الشاعر مفردة شباب إلى فلسطين المكان ليشكل تركيب "شباب فلسطين" ويبرز انتمائهم إلى هذا الحيز المكاني. وهكذا تحولت قصيدة الفداء والدم إلى أداة مقاومة لتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة في ظل التهديدات الرامية إلى تهويد مدينة القدس الشريف ومصادرة ما تبقى منها.

وعن ما يقال آنذاك عن الحلول السلمية التي تتخذها القوى الكبرى بالتواطؤ مع الحكام العرب ذريعة لابتلاع ما تبقى من الأراضي الفلسطينية وتحويل هذه الكارثة العالمية إلى سياسة "الأمر الواقع"، يؤكد الجواهري أن شباب فلسطين اعتلوا صهوات اليأس ومتمون الخطر بعد أن أمالت بهم عن أمل مكذوب لا رجاء فيه كالناقاة المأيوس منها التي اقتطع سنماها واجتث غاربها ويعود بنا إلى قصيدة "اليأس المنشود" أو "فلسطين بين العرب والصهاينة" التي كان قد أنشدها في شباط عام ١٩٤٧ أي حوالي قبل عام من حدوث فاجعة "النكبة" وجاءت في اثنين وخمسين بيتاً وسبق أن دعا فيها إلى اليأس المنشود وهو بعيد كل البعد عن اليأس الذي يتبادر للذهن للوهلة الأولى ألا وهو الاستسلام والخنوع، بل إنه نظر إلى اليأس من كل الوعود والحلول، والآمال الكاذبة التي يمتئ بها العرب من قبل أعدائهم. وأراد بدعوته إلى اليأس والابتعاد عن الآمال الكاذبة، أن يشجّع أبناء الأمة الإسلامية على الاعتماد على قدراتها الحقيقية ومواجهة العدو بدلاً من الحوار معه والدوران في فلك أجنده واسترضائه. وقد ركّز الجواهري هنا على الاندفاع خارج الحلول السلمية، وهو ما أراد من الدعوة إلى اليأس وقطع حبال الأمل بغير السلاح. ويوضّح بعد ذلك أن الشباب الفلسطيني كان فريسة للحلول السلمية المزعومة والضريرية التي دفعت من أجل هذا الحلم. وخلاصة القول إن هذه الحلول المزعومة ضارة بالقضية الفلسطينية ويجب تداركها بالفداء والدم والنضال والجهاد. مشبهاً بذلك الحلول السلمية والمفاوضات وعمليات التطبيع مع العدو الصهيوني بـ «الوحش» الذي يفترس «الشعب الفلسطيني»، و«الحلم» الذي ينبغي على الفلسطينيين دفع ضريبته كما نجد في «صهوات اليأس» تشبيهاً بليغاً، فقد شبه اليأس (المشبه) بالصهوة (المشبه به) واستغنى الشاعر عن الأداة ووجه الشبه:

مالت بهم صهوات اليأس عن أملٍ جُبَّ السَنَامُ بِهِ واجتُثَّ غاربه
كانت حلولٌ وها أنتم فرائسها وكان "حلمٌ" وها أنتم ضرائبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٨/٥)

ثم يصوّب نصيحته نحو الحضار والشباب الفلسطينيين والحركات الفدائية أن يستفيقوا تماماً من أحلام الحلول السلمية ومن أطراف الوعود التي سبق وأكد عدم جدواها، لأنه سيأتي يوم يحاسب كل من سوّق لهذه الأحلام والأوهام التي لم يجن الشعب الفلسطيني منها سوى النكبات والنكسات والهزيمة تلو الأخرى، وأن التأريخ سيحاسب كل من سار خلف هذه الخيارات وازعاً البندقية إلى جنب وتخلي عن المقاومة المسلحة:

ولا يطربكم وهم فثم غدٌ يحصي الحساب وتأريخ يحاسبه
ولا يزحزحكم خلف ولا جفٌ عن موقف أعين الدنيا تراقبه
فليس بين طواعين وأوبئةٍ مثل الشقاق إذا دبّت عقاربه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٩/٥)

ثم يواصل حثه شبان فلسطين على النضال والانضمام إلى المنظمات الفدائية بغية مقارعة العدو الصهيوني، مشبهاً أخلاق وسجايا هؤلاء الفدائيين المجاهدين بـ"الفجر" و"السحاب" في الطهارة والنقاء، ويستحضر الشاعر التأريخ ويوظف عهد "الغساسنة" ملوك الشام و"النعامنة" ملوك الحيرة وما حدث لمالكهم آنذاك من أجل استنهاض الشباب العربي وتعاضده مع المنظمات الفدائية. فبينما يذكرهم بعهد "الغساسنة" و"النعامنة" باعتبارهما رمزاً للبداءة والشراسة، يعود ويستنهض الشباب العربي مرة أخرى أن يشدّ أزره ويتعاضد مع المنظمات الفدائية ويخصّ بالذكر حركة «فتح» التي كان الشهيد الفلسطيني "فتحي ياسين" ينتمي إليها:

ويا شباباً كطهر الفجر سيرته وكالسحاب نقيات نقائبه
ممن تبناه غسانٌ وسامرُه وذو النعيمين نعمانٌ وحاجبه
لا تخذلوا فتح عن ضيق وعن سعةٍ فيما يراضيه أو فيما يفاضبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٩٨-٢٩٩/٥)

فقد شبّه الجواهري الشباب المجاهدين (المشبه) في السيرة الأخلاقية (وجه الشبه الاول) بـ"طهر الفجر" (مشبه به اول) وفي سجاياهم وطبيعتهم (وجه الشبه الثاني) بـ"السحاب" (مشبه به ثان). والقيمة الفنية والجمالية هنا، هي بيان الشاعر مشاعره تجاه الفدائيين ورسم لوحة جميلة عن سجاياهم الأخلاقية، وعقد مشابهة بين هؤلاء من جهة والفجر وبين السحاب من جهة أخرى.

وبعد إشارات ثانياً بشجاعة الفدائيين الذين مُزجت دماهم الطاهرة بتراب الوطن وأريقت على أرض الوطن لدى نضالهم دفاعاً عنها كما تندمج المياه والخمرة في وعاء واحد، ينصح الشباب الفلسطيني والفدائي مرة أخرى أن يمضي قدماً في عملياته الفدائية وتضحياته، وأن لا يثق بكل المماطلات والتسويفات السياسية التي تطيل في أمد الاحتلال الصهيوني لفلسطين وتميت في نفوس الجماهير جمرات الغضب والثورة والحقد على الغاصبين، ولا بكل الحلول السلمية المزعومة التي لن تأتي بنصرٍ أو فائدة ولا تستجاش بها الجيوش. ويصف الجواهري هذه الدعوات بالصخب الذي تثيره اللقائ وهي تنطق الحصي:

ويا فتى الحيِّ مازج تربُّه بدمٍ كما يمازجُ صرفَ الراح قاطبه
ولا تثق بوعودٍ ما استُجِّش بها جيشٌ لقومٍ ولا نصرٌ يواكبه
ولا بسربِ دعاواتٍ يخال بها سربُ اللقائِ مُزجاةً صواخبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٠/٥)

وفي البيت الأول من هذا المقتبس أراد الشاعر أن يقدم صورة عن بطولات المناضلين، فأورد تشبيهاً لا يكون وجه الشبه فيه أمراً بيئياً بنفسه بل يحتاج في تحصيله إلى ضرب من التأويل فرسم صورة للفدائي عن طريق تقنية التشبيه التمثيلي بأسلوب رائع، إذ شبه المجاهدين الذين مُزجت دماهم الطاهرة بتراب الوطن لدى نضالهم دفاعاً عنه (المشبه) بالمياه والخمرة اللتين تختلطان في وعاء واحد (المشبه به)، ووجه الشبه هو صورة الفدائي الذي يضحّي بنفسه في تحرير فلسطين، فتراق دماؤه وتختلط بأرض الوطن. وهذا ما بيّن أن الجواهري يستعمل شتى أنواع الصورة التشبيهية في سبيل لفت الأنظار نحو القضية الفلسطينية. كما أن الشاعر شبه الحلول السلمية والدعاوات (المشبه) باللقائ (المشبه به) في الصخب دون جدوى (وجه الشبه) مستغنياً عن الأداة.

ثم إنه يتساءل استنكارياً عما إذا كان هناك في التاريخ "حوارٌ" سياسي أعاد للمغصوب ما غصب منه، وللمقهور ما سلب من أرضه وكرامته، وعما إذا كان حوار مزعوم كهذا يختلف عن غشيان المرء ذنباً ممعوطاً باعتباره رمزاً للغدر والخديعة ليعاتبه بالحسن، أملاً أن تكفي مذايبه وضراوته، وعما إذا كان ذلك يختلف أيضاً عن محاولة الإنسان أن يزحزح الوحش جاثماً على فريسته بأن تتزلف إليه بما تمسح من مخالفه، مؤكداً أن العدو لا يعرف سوى لغة السلاح والنضال وأنه لن يتراجع إلّا بالعنف والقوة، فالتعويل على الحلول السلمية والمفاوضات لن تجن سوى المزيد من الهزائم:

أبالحوار يرُدُّ الغنمَ غانمُهُ أو يرجع البلدَ المغصوبَ غاصبه
أم أنت تطمَعُ أن يكفِيكَ مذابهُ غشيانُك الذئبَ بالحسنَى تُعَاتبه
أو أن يزحزحَ وحشٌ عن فريسته بأن تُمسحَ بالزلْزُفَى مخالبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٠/٥)

فيستخدم الشاعر أسلوب الاستفهام الإنكاري باعتباره أسلوباً من أساليب التعبير، ولم يكتب بسؤال واحد بل يعدد أنماطه وينوعها في سبيل توصيل ما يريد إيصاله للمتلقى وتكريس فكرة ضرورة الكفاح والمقاومة لتحرير ما احتل من أرض فلسطين ودحر العدو الصهيوني من منطقتنا، وذلك إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على قدرة الجواهري الخارقة في تحويل عناصر الجملة، والملاحظ أن شاعرنا لا يأتي بتقنية الاستفهام في بيت واحد بل عبر عدة أبيات تعبر عن فورة انفعالية تعترى نفسه.

تبيين الحالة المساوية للأمة العربية

وبعد تشجيع المناضلين على مواصلة الكفاح، يلجأ الجواهري إلى تبيين الحالة المساوية التي تحيط بالأمة العربية والإسلامية من أجل إنهاضها وحث المناضلين الأبطال على مواصلة درب الفداء والدم الذي أثبت جدواه، داعياً إياهم أن يتركوا «مشرق الشمس للدنيا يغازلها» ويطلقوا الدنيا وملذاتها ثلاث مرات، لأنَّ الأمة العربية دخلت حالة غروب وظلمة ومأساة، وأن الصباح لا يكشف سوى جبين الأمة المتربِّب جرأ التواطؤ والتعاس العربي، ولذلك لم يبق لدى الفدائي سوى دمه ونفسه ليضحِّي بهما لإزاحة العار وتحرير الأرض وكشف الغمة عن هذه الأمة التي تكالبت عليها المصاعب:

دع مشرقَ الشمسِ للدنيا يغازلها فقد دجَّت عربياتٍ مغاربه
سنى الصباحِ جبينٌ أنت عافره ومطلعُ الشمسِ دربٌ أنت راكبه
لم يبقَ إلا الدمُّ الوهاجُ تنضحهُ على ظلامك كي تجلَى غياهبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠١/٥)

ففي المقتبس أعلاه، رسم الشاعر لوحة عن الأمة العربية إذ دخلت حالة غروب وظلمة ومأساة، وأن الصباح لا يطر سوى بجهاد هؤلاء الأبطال. وبما أن الجواهري يتحدث عن المحطات المشرفة للشباب الفدائي في تاريخ الأمة العربية، أراد للمتلقى أن يتخيل هذه الصفات النبيلة لدى المجاهدين وصواب الطريق الذي سلكوه في سبيل تحرير القدس، فتحدث في البيت

الثاني عن شروق صباح الأمل من جباه الفدائيين والخيار الذي اتبعوه، مستعينا بالتشبيه البليغ مرتين في هذا البيت؛ إذ شبه جبين الفدائي (المشبه) بسنى الصباح (المشبه به)، والطريق الذي سلكه هؤلاء الأبطال (مشبه) بمطلع الشمس (المشبه به)، مستغنياً عن الأداة ووجه الشبه. فبعد رسم الشاعر لوحة عن الظلمة التي خيمت على الأمة العربية، يتخيل المتلقي الفدائي ولم يبق لديه سوى دمه ونفسه ليضحّي بهما لإزاحة العار وتحرير الأرض.

وما إن خلص من رسم الصورة المأساوية التي تحيط بالأمة العربية وحثه المناضلين على مواصلة درب الفداء، حتى خاطب المستسلمين الذين تركوا السلاح جانباً وتخلّوا عن المقاومة ومقارعة العدو الصهيوني، ووصفهم بـ"القعداء: الجبان" لتركهم النضال. وأكد أن استسلام وهوان هؤلاء جلب لهم الضعف والذلة، ولا ييأس منهم بل يشجّعهم على الرجوع إلى رُشدهم وتجرّع كأس الموت عبر خوضهم ساحات النضال والمعارك الفدائية، من أجل استرداد العزة والكرامة الضائعة، وشبه الموت بـ"المائدة" التي يتناول منها الفدائيون طوعاً قبل أن يطعمون جبراً:

أقول للقعداء المهزول أضمره هوانه وهوى للندل جانبه:
ذُق من "خوان" الردى تُسمنك عزته وأقحمه تعصمك من ذل أطايبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠١/٥)

تبيين قوة المد الفدائي والقسم بدمه العملاق كضدية لقصور الآخرين

«وتأتي انطلاقة الجديدة وهو يقسم بالدم العملاق الذي "لازيغ في مشيته، ولا عوج مناكبه"! ومن أين يأتي الزيع أو العوج، وهو الذي تحمل هموم قومه، وسار ليخفف منها؟ وقد كان صاحب الدم العملاق أهلاً للثقة، ما دام ممسكاً بمجد فات ذاهبه، وداحضاً عاراً، ويصون مجداً، ويدرك ثأراً عزّ طالبه» (حور، ١٩٩٨: ١١١-١١٢). فقوله «الدم عملاقاً فلا زيغ في مشيته» استعارة مكنية، إذ تصوّر الشاعر الدم بصورة كائن حي يتحرك، وفيه تشخيص وإيحاء بقداسة الفداء والتضحيات، فحذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو (مشيته).

أقسمت بالدم عملاقاً فلا زيغ في مشيته ولا عوج مناكبه
تحمل الوزر ألوى عنه وازره وعافه خدنه، وأنسل صاحبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٢/٥)

وبعد قسمه بالدم العملاق بأنه فدية عن قصور الآخرين وتقصيرهم، وأنه يتحمل الذنب عن مسببه وعمن تتصل وانسل عنه، يأتي بجواب القسم «لخير يومك يوم تسترد به...»،

موضحاً أنه لا سعادة أكبر من استرداد أصحاب الدم الأرض المسلوية، واستعادة المجد المغتصب، ودحض العار، وصون المجد، والثأر لفلسطين أُولى القبليتين:

لَخَيْرُ يَوْمَيْكَ يَوْمٌ تَسْتَرِدُّ بِهِ مِنْ كَفِّ أَمْسِكِ مَجْدًا فَاتَ ذَاهِبُهُ
يَوْمٌ دَحَضْتَ بِهِ عَارًا، وَصَنْتَ بِهِ غَدًا، وَأَدْرَكْتَ ثَارًا عَزَّ طَالِبُهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٢/٥)

وإذا كان التشبيه التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من متعدد، جمعت هذه الهيئة وضمت إلى بعضها بعضها، بحيث تصبح شيء لا يمكن فصله، فإن الجواهري في هذا الأسلوب البياني له تطبيقات عديدة منها ما استخدمه في تصوير كيفية انتصار الفدائي على القوى المتغترسة عبر الصمود والمقاومة. فالشاعر بعد الحديث عن التضحيات ودورها في استرداد الأرض المسلوية والكرامة المهذورة، وقف متسائلاً استنكارياً «هل توجد جهة غالبية وطاغوت مسيطر، لم يستطع الدم والتضحيات من قهره وهزيمته؟» كلا.. لأنه من يشدد عزمته ويرخص بدمائه بغية الوصول إلى أهدافه السامية، يتمكن من إزاحة الثقة العمياء والكاذبة لدى الطاغوي والظالم. وأن الفداء والدم بمثابة كلمة سر تمكن المناضل من تذليل العقبات والوصول إلى ما يطمح إليه، وذلك بفضل تضحياته وتسطيره الملاحم الباسلة في مقارعة العدو الذي غرته ثقته بقوته الهشة التي سرعان ما تنهار أمام عزيمة أصحاب الدم والفدائيين:

سَلِ الطَّوَاغِيَتَ هَلْ مِنْ غَالِبٍ أَشِيرٍ إِيَّا وَهَذَا الدَّمُ الْمَغْلُوبُ غَالِبُهُ
يَزْعَزِعُ الثِّقَةَ الْعَمِيَاءَ سَارِبُهُ كَمَا يُزْعَزِعُ جِذْرَ الدَّوْحِ ضَارِبُهُ
وَمَا الْمُنْفَادَةُ سَرٌّ إِنَّهَا خَطِرٌ هَانَتْ عَلَى يَدِ مَقْدَامٍ مَصَاعِبُهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٢/٥)

فالجواهري في تصويره كيفية انتصار الصمود والمقاومة على القوى المتغترسة، استخدم التشبيه التمثيلي في قوله «يزعزع سارب الدم المغلوب الثقة العمياء كما أن جذر الدوح يزعزعه ضاربه»، و(كما) هو الأداة، ووجه الشبه هو (الزعزعة والتدافق بعضها فوق بعض).

أجل؛ الفداء سرٌّ عظيم يهون المصاعب للبطل المقدم ولكن ماذا بعد؟.. يستطرد الجواهري إلى أنه وكما أن كثرة التجارب تجعل الشخص محنكاً، فكذلك أن العزيمة تمدّه بالقوة، الأمر الذي يؤكد ضرورة شد أبطال فلسطين والفدائيين العزيمة لمواجهة العدو. وبما أن الجواهري كان يتحدث عن عظمة الفداء والجهاد وأيضا عن دور العزيمة في سبيل تذليل العقبات والمصاعب

التي قد تواجه البطل المقدم، رأى أن يجعل المتلقي يتخيل هذه المقولة، لذلك شبه البطل المقدم الذي يتمتع بالعزيمة، بالمحنك الذي سبق وجرب أموراً كثيرة، لما بينهما من وجه مشابهة في استقادة كل منهما مما لديه فالبطل تمده عزيمته والمحنك تغنيه تجاربه:

إنَّ المشيِّعَ مدَّتْهُ عزائِمُهُ مثلُ المحنِّكِ أغنَتْهُ تجارِبُهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٢/٥)

وفي هذا البيت نلاحظ التشبيه التمثيلي، حيث شبه الشاعر الشجاع في قوله «إنَّ المشيِّعَ (أي الرجل الشجاع الجريء القلب) مدَّتْهُ عزائِمُهُ» بالرجل ذي تجربة في قوله «المحنِّكِ أغنَتْهُ تجارِبُهُ»، مستفيداً من الأداة (مثل)، ووجه الشبه بين المشبه والمشبه به هو (المنفعة التي تشمل كلا من البطل والمحنك).

التعبير عن حزنه لفلسطين

وبعد الدعوة إلى المقاومة والصمود، وتبيين حالة الأمة العربية الهامدة وتمجيد الفداء والفدائي، وتقديمه النصائح للأبطال الفدائيين، كادت آلام وأحزان الجواهري تجاه القضية الفلسطينية تطفح إلى السطح. فاستشعر حاجة لينفَسَ عنها بمخاطبة «الفجر الصادق»، مطالباً إياه أن «يوقظ» و«يصحي» أعين العرب التي كانت قد أغشاها النوم منذ زمن بعيد ما أدى بها إلى «القرحة»، للتعبير عن استمرار الهزيمة وعدم تحرك الأمة العربية والإسلامية، لأنه أنشد هذه القصيدة حوالي ١١ عاماً قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني عليه السلام حيث تبني القضية الفلسطينية فور انتصار الثورة التي توجت بطرد السفير الإسرائيلي آنذاك من طهران وتحويل مقر سفارة العدو الصهيوني إلى سفارة فلسطين في الجمهورية الإسلامية. وبعد ذلك يطلب العون لتحمل الخطب الذي يكابده منذ احتلال فلسطين بل منذ أبعد منه حيث دُبرت المؤامرات لإلحاق فلسطين بالأندلس، وكذلك يريد العون لإنهاض الأمة والفدائيين الذين يخاطبهم في هذا الحفل التأييني بغية تثويرهم وإنهاض الهمم لديهم ليسلكوا طريق الجهاد والكفاح على غرار الشهيد صبحي ياسين:

يا صادقَ الفجرِ زعزعَ أعيناً غفِيت فقد تفرَّحنَ ممَّا طال كاذِبُهُ
وأنتِ يا جمرةَ الحرفِ التي نضِجت أمُّ الكتابِ بما تُوحِي وكاتبه
كوني لي العونَ في خطبِ أكابِدُهُ ونجدةَ الغوثِ في خلقِ أخاطِبِهِ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٢/٥)

استخدم الشاعر في البيت الأول من المقتبس أعلاه استعارة، حيث ذكر المشبه في الشطر الأول وهو "الفجر الصادق" وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز له بشيء من لوازمه وهي مفردة "زعرع" في قوله «زعرع أعيناً غفيت» على سبيل الاستعارة المكنية للإيحاء بقوة التعبير ودقة التصوير. والقيمة الفنية تظهر جليا في دقة الشعر في تصوير الأمة العربية وغفلتها عن أمرها بحيث باتت لا تحرك ساكناً تجاه القضية الفلسطينية. فصورّ العرب وهم نائمون منذ زمن بعيد، ما أدى إلى قرحة جفون أعيانهم.

ويستمر في وصف حالته النفسية تجاه ما يحدث لفلسطين، حيث كاد ينفجر ضميره للحزن والهم الذي يحمله على عاتقه منذ ٥٠ عاماً ذاقت فلسطين خلالها شتى أنواع المحنة والقهر والمرارة، مثلما يتعرض الحاطب يومياً للشوك ويشعر بالألم وأن التكتّم والتجاهل تجاه ما حدث وما زال يحدث لأولى القبلتين لا يغير من الواقع بل يزيد من ضعف وانكاسة الأمة:

فقد تكتّمتُ حتى لَجَّ منفجراً بي الضميرُ وحتى ضجَّ صاحبه
خمسونَ عاشت فلسطيناً ومحنّتها كما يعيشُ قتادَ الشوكِ حاطبُه
نَضَوَى على قَدْر ما نغشَى مآدبها إنَّ اللئيمَةَ تُضوي مَن تُؤادِ به

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٢/٥)

ففي البيت الثاني من المقتبس أعلاه، ولدى وصفه حالته النفسية تجاه ما يحدث لفلسطين، استخدم الجواهري التشبيه التمثيلي، فشبّه محنة فلسطين طيلة العقود الخمسة الماضية، بحياة الحاطب الذي يتعرض يومياً لشتى أنواع الشوك والقتاد، وذلك على سبيل التمثيل إذ نجد وجه الشبه هو حالة العذاب والأذى المتكررة والمتجددة، حيث لا يوجد أمل لحسم هذه القضية بالمستقبل القريب. وقد أورد الشاعر "شوك القتاد" كناية عن الألم والعذاب.

ويستذكر "وعد بلفور" الذي قطعه بريطانيا بمفردها وتأمّرت على أراضي الأمة الإسلامية، حيث أصدر "آرثر جيمس بلفور" وزير خارجية بريطانيا آنذاك تصريحاً اشتهر فيما بعد بـ"وعد بلفور" بتاريخ ٢/١١/١٩١٧ وكانت النتيجة بتعهد بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين (صالح، ٢٠١٢: ٣٤). وبات هذا الوعد رمزاً للشؤم والغبن لدى الفلسطينيين. ولفور يقع أيضاً في عداد رموز الشخصيات السلبية في إطار القضية الفلسطينية. كما يتذكر نكسة حزيران ١٩٦٧ ويقول إنه منذ وعد بلفور حتى نكسة حزيران طُعِمَت فلسطينُ الـ"زقوم" وتجرعت المياه الملوثة بسبب تقاعس الدول العربية في سبيل

تحريرها حيث بسبب سياسة التهجير التي تنتهجها حكومة العدو بات الفلسطينيين تأثراً،
ومشرداً ومهجراً لا ملجأ له، يفترش الأرض في المخيمات وتهين أشعة الشمس جسده العاري
حيث الخيام ممزقة ولا يوجد له مأوى ملجأ:

من وعد بلفور "زقُوماً" تُطاعمه حتّى حزيرانَ "غسليناً" نُشاربه
وتأتهين تَهين الشمسُ عريتهم ويحسدُ الليلُ إذ تُرَخى ذوائبه
صرعى الخيام ملايينُ ممزقةً كنسجهنّ الذي راحب تجاذبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٠٣/٥)

فعند حديثه عن معاناة الفلسطينيين في المخيمات، قدّم الشاعر صورة عن حياة المشرد
الفلسطيني مستعيناً بالاستعارة المكنية والتشبيه التمثيل؛ ففي قوله «تُهين الشمسُ عريتهم»
استعارة مكنية، إذ تصور الشاعر الشمس إنساناً يهين الفلسطينيين، وهذا الإنسان المشبه به بعد
حذفه أتى بأشياء من لوازمه وهو مفردة (تهين)، وهذا يدلُّ على أن الشاعر كان يهتم بمزج
الصورة البيانية بالطبيعة وقد جاء الجواهري هذه الصورة البيانية لغرض بلاغي وهو المبالغة
وتنمية الخيال لدى المتلقي، ليشعر بشدة المأساة في فلسطين وضرورة التحرك لإنقاذها قبل فوات
الأوان. كما شبه الجواهري في البيت الثالث من المقتبس ذاته الخيام الممزقة وهي ملقاة أرضاً
(المشبه)، بالنسيج الذي بلي واخترق من شدة أشعة الشمس (المشبه به)، مستخدماً الأداة
(الكاف). ووجه الشبه هو وضعية الخيمة الممزقة نتيجة سياسة التهجير والإهمال، فتتجاذب
أشعة الشمس نسيجها لتلقى على الأرض وتحول دون إيواء المشرد الفلسطيني. وهذا النوع من
التشبيه هو من أرقى أنواعه إذ يدعو المتلقي إلى الإمعان وإعمال الفكر.

وبات الفلسطيني الذي هو جزء لا يتجزأ من الأمة العربية والإسلامية، مشرداً، ومحروماً،
وفقيراً يستحق الصدقة المرطعها على الأحرار على مرأى ومسمع العالم والشعوب التي تهناً
بعيشها، بينما ثروة الدول العربية من حوله، وبفضل البترودولارات أصبحت لا تُعدُّ ولا
تحصى، كالأثام التي تتضاعف ولم يعد بإمكان الشخص أن يحسبها ويحصيها، راسماً
بذلك لوحة عن حياة المواطن الفلسطيني بالمخيمات:

تُجبى لها الصدقاتُ المرطعُها مرأى ومسمع من رَأقت مشاربه
وحولهنّ ملايينُ مكدّسةً كالإثم ضُوعف لا يحصيه حاسبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٠٣/٥)

وبما أن الجواهري كان يتحدث عن ثروة الدول العربية الهائلة دون منقعة لفلسطين، فأراد للمتلقى أن يتخيلها بهيئتها السلبية فشبه الملايين المكدسة (المشبه) بالأثام المضاعفة عبر أداة التشبيه التي هي (الكاف) ووجه الشبه هو (لا يحصيه حاسبه). فجمع جميع أركان التشبيه عبر تقنية التشبيه المرسل المفصل.

الإشادة بالشهيد والشهادة والتحذير من مغبة تقاعس العرب واستمرراً بتمجيد الفدائي الفتحاوي الذي ارتقى شهيدا وكان قد أثنى جراحا طيلة مسيرته النضالية وهذا من دواعي فخره واعتزازه، كما أن السيف يعتز بفلوله. واستعاد صبحي ياسين المجد للأمة العربية بمقارنته العدو الصهيوني وانتصر بصبره وثقته، مؤكداً أن النصر لا يأتي إلا بالصبر وزين هذه الأبيات بتصوير بياني رائع عبر تقنية التشبيه المرسل المفصل:

يا قائد "الفتح" يستدري بنبعته	نبعُ الفداء وترعاه مواهبه
يهتز الجرح تلو الجرح يحمله	كالسيف يعتز أن قلَّت مضاربه
يا واهب المجد أعراقاً يفصد	أغلى من المجد كنز أنت واهبه
وجالب النصر عن صبر وعن ثقة	والنصر من هو - إلا الصبر - جالبه؟

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٤/٥)

ولكي يجعل المتلقي يتخيل هذه الصورة الشعرية، عقد علاقة مشابهة بين المناضل والسيف على طريقة التشبيه المرسل المفصل وذكر جميع أركان التشبيه من المشبه (المناضل المتخذ بالجراح) والمشبه به (السيف المفلول) والأداة (الكاف) ووجه الشبه (الاعتزاز). فأخذ الجواهري هذه الصورة من الشعر الحماسي القديم الذي كان قد حفظ قسطاً كبيراً منه في أيام طفولته واعتقد بأنه نجح في اختيار المشبه به، ليتناسب وحالة النضال والتضحيات في سبيل تحرير فلسطين.

ويثني عليه بطلاً عبّد الدرب ورسم خارطة الانتصارات للفدائيين والاستشهاديين من بعده ويعد مناقبه، ويقر بعجز لسانه في تأدية حق الفدائي وعد مناقبه، وأنه لو نثر النجوم بكثرتها واستعان بها لما استطاع أن يوفي ذلك:

أثني عليك بما يثنى على بطل	نبع الطولات أشباه مساربه
وما عسى يبلغ المنطق من رجل	أسمى وأبلغ من نطق مناقبه
بل لو نثرت النجوم الزهر أعوزني	نجم يوفيك حق القول ثاقبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٤/٥)

ثم يعود ويندب "قائد الفتح" مرة ثانية، وهي ندبة ما فتى الشاعر يرددتها غير مرة، إعجاباً بالشهيد الفتحاوي وما فعله الفدائي صانع الانتصارات، وهو الشهيد صبحي ياسين الذي راح يناجيه بصراحة ويعبر عن أحاسيس نفسه وخوالجها، ويضيف أن نفسه مبسوطه في متابعة الحديث معه. وأن أصدق الشعر ما ينبع من الضمير وتشتعل ناره من حرارة القلب، وهي حرارة احتلال فلسطين التي يشعر بها كل عربي ومسلم حر في قلبه، لذا وجدنا الشاعر يحدث قائد الفتح بأنه كما "التكلى تحب التكلي"، فإن أفضل شخص للنجوى هو رجل كريم يشاركه ويقاسمه ويتمصص همومه:

يا قائد "الفتح" إنَّ النفسَ مُرسَلَةٌ	كالطير تترى مراسيلاً عصابه
وأصدقُ الشعر ما هبَّت نسايمه	من الضمير وما شُبَّت لواهبه
وخيرُ من قيض للنجوى أخو ألمٍ	ندبٌ أراح عليه الهمَّ عازبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٤/٥)

ففي البيت الأول تشبيه مرسل مفصل، فقد شبه الشاعر النفس (المشبه) بالطير (المشبه به) عبر أداة (الكاف) ووجه الشبه (الإرسال) كما أن الجواهري شبه الشعر (المشبه) بالريح (المشبه به) وحذف الأخير ورمز إليه بالنسائم التي هي إحدى لوازم المشبه به وذلك عبر تقنية الاستعارة المكنية. كذلك الحال في قوله «شُبَّت لواهبه» استعارة مكنية على نفس الطريقة و(الهاء) في لواهبه تعود إلى الشعر.

وأخذ يشكو في مناجاته لقائد الفتح حالة الأمة العربية المأساوية التي قابلت صراحته بكذب ونفاق، وأوضاع المجتمعات العربية التي زادت معايها على محاسنها، ومدى استيائه من المضاعفات والمفارقات، والتناقضات في إلقاء العرب التبعات الكبار على عواتق معدودة عند الشدائد والمصاعب، وتخلي الآخرين عن أولئك الأبطال وتركهم يرزحون تحت وطأة الحمل الذي يفوق طاقتهم:

أفرغتُ رُوحِي في الأرواحِ أمحضُها	بئراً صُراحاً؛ وشرُّ البثِّ رائبُه
أشكو إليك تضاعفاً بمُجتمعٍ	على محاسنِه أربت معاييه
ما إن تزالُ به الأعباءُ جاثمةً	على القليلِ إذا نابت نوابه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٥/٥)

ثم يصف حالة الأمة العربية المأساوية ومجتمعاتها في التناقض وعدم التضامن عند الحاجة والشدّة، وركونهم إلى الدعة وحب السلامة، فبينما توجد شريحة وفريق من الأمة العربية يعيش في الأحلام وملذات الدنيا، ولا يألون أي اهتمام لما يحدث لأمتهم، هناك فريق آخر حالته مرزوية وبحاجة ماسة لمن يمدّ له يد العون. ويصوّر غالبية الأمة بأن لا رأي لها، فهي مع هذا وفي نفس الوقت مع نقيضه في إشارة له إلى حالة التناقض التي كانت تخيم على العرب آنذاك ويبدو له أن هذه الوضعية لاتزال مستمرة:

شَطَّ الْمَسَافُ أَفَادَ نَفْسَهُ كَرَمًا وَمُقْتَدَاةٌ بِأَهْلِيهِ مَكَاسِبِهِ
وصَاهِرٌ فِي جَحِيمِ النَّاسِ مَهْجَتَهُ طَاوِي الْمَصِيرِ عَلَى الضَّرَاءِ سَاغِبِهِ
وَأَمْعَاتٌ فَلَا زَرْعٌ وَزَارِعُهُ هَمٌّ لَدَيْهِمْ وَلَا ضَرْعٌ وَحَالِبِهِ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٠٥/٥)

وأن هؤلاء العرب يحاولون إبعاد الموت من أجل أن يستمروا بحياتهم المترفة ولكن الأجل يباغتهم ليطلع عليهم الذلة والمسكنة وأنهم بسبب طول الآمال، تقمصوا أحلامهم وأصبحوا يجرون خلفها، وباتت بيوتهم عالية وشيدوا الأبراج والعمارات الفخمة ولكنهم تركوا فلسطيناً وانشغلوا بالحياة الدنيا ويا ليتهم كانوا بدل ذلك أديرة ورهباناً ولم يتعلّقوا بشئ من أموال الدنيا التي أفسدت غيرتهم وحميتهم:

تُبَاعِدُ الْمَوْتَ إِشْفَاقًا وَيَدْمَعُهَا شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ إِذْ لَالٌ تُقَارِبُهُ
وَنَاسِجُونَ مِنَ الْأَحْلَامِ أَرْدِيَّةً كُلُّ تَجَلَبَبٍ مِنْهَا مَا يَنَاسِبُهُ
وَمَنْطَوُونَ: عَلَالِيهِمْ صَوَامِعُهُمْ لَيْتَ الْبَدِيلَ بِهِمْ دَيْرٌ وَرَاهِبُهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٢٠٥/٥-٢٠٦)

استنهاض الأمة العربية والتفاؤل بمستقبل فلسطين

ويستهل القطعة الأخيرة بمخاطبة «قائد الفتح» للمرة الرابعة، ليذكر الفلسطينيين والفدائيين بأنه لا فتح وانتصار بلا تعب ونضال، وأن من طلب العلى سهر الليالي، وعليهم أن لا ينسوا بأن فرس المقدام الطامح للوصول إلى القمم والأعالي، ستتعب وتشعر بالإرهاق. ثم يلتفت معاتباً بأنه ما لذة سلك الدروب العامرة وما قيمة الأشياء السقيمة إذا طُلبت؟ وأن الفضل كل الفضل للذي يسلك درباً وعرةً ويسعى للحصول على أشياء ثمينة سامية، لا الأمور السقيمة التي لا يطمح أحد بها:

يا قائد "الفتح" ما فتح بلا تعب مَهْرُ الطِّمَاحِ إِلَى الْعُلْيَا مَتَاعِبِهِ
ما لذّة الدربِ معموراً تساييرُهُ وقيمةُ الأمرِ مبسوراً تطالبه

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٦/٥-٣٠٧)

وما إن نوه الشاعر بضرورة الاستعداد التام لمواجهة شتى المشاكل والتحديات في سبيل تحرير الأرض واستعادة عزة وكرامة الأمة، حتى عاد وناجى وبثّ الشهيد الفتحاوي صبحي ياسين للمرة الخامسة والأخيرة بأنّ المستقبل ليس إلّا الأفكار والخطط التي توضع اليوم، وأنّ الأفكار والأهداف تدبُّ كالديب لتتحقق على أرض الواقع وعسى تزدهر حديقة متروكة بالمستقبل بسبب الظروف التي تمر عليها اليوم، غامزاً بذلك من قناة الفدائيين والمناضلين للتأمل حول القضية الفلسطينية، وأنّ العزيمة والفكر والهمة هي التي تميز قوماً عن قوم، ولا فرق بين الأجيال سوى الإنجازات والهزائم التي يخلفونها:

يا قائد "الفتح" والدنيا إلى صُعدٍ والفكرُ يَسْتَبِقُ الْغَايَاتِ دَائِبِهِ
وربّما ازدهرت غنّاءً وارفئةً غداً من القمرِ النَّائِي خرائبه
تُمَايِزُ الْكَوْنِ عَنْ كَوْنِ طِبَائِعِهِ وتفرّقُ الْجَيْلُ مِنْ جَيْلِ ضَرَائِبِهِ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٧/٥)

وتبرز في المقاطع الأخيرة من هذه القصيدة ظاهرة "التكرار" في أسلوب الجواهري حيث كرّر عبارة "قائد الفتح" خمس مرات، مستخدماً محاسن التكرار اللفظي في بناء موسيقى القصيدة وإيقاعها، فمنحها تناسقاً وتماثلاً ممتازاً، وجاء هذا التكرار عفويّاً بعيداً عن الصنعة والتكلف يستحسنه المتلقي ويأنس الإنسان به فجاء بهذه العبارة في بداية ثلاثة مقاطع ومرتين بين الأبيات. ومن خلال الإمعان في هذه الظاهرة نجد أن الشاعر ينوي توكيد الفكرة لدى المتلقي العربي فضلاً عن الإيقاع الجميل الذي يتكون من هذا التكرار. فقام بمناجاة القائد الفتحاوي صبحي ياسين مباشرة ومخاطبة الأمة العربية بشكل غير مباشر لتحريضها على النضال والمقاومة، فعمد إلى تكرار هذا التركيب ليكون مفتاحاً إلى المقاطع الجديدة ووسيلةً من وسائل الربط بين المقاطع الثلاثة الأخيرة كما أنه قرن هذا التركيب بحرف النداء (البياء) وأخذ من صورة النداء طرفاً آخر يحاوره ويناجيه ويتلذذ بطول المناجاة معه ويتكرار النداء.

ويواصل استنهاضه الفدائيين ورفاق الشهيد صبحي ياسين بالقول إن الأجيال المقبلة ستكون شاهدة على ما نصنعه اليوم تجاه القضية الفلسطينية وأنها ستزِيل بعزمها وقدرتها

الضعف والعار الذي نحن فيه، وأنَّ المستقبل المنتظر سيمرُّ على أمس الغابر كما يمرّ المصحح على أغلاط يشجبها، وأنَّ الأجيال القادمة ستلقي باللائمة على جيلنا إذا لم يتحرك جدياً من أجل قضيته وحينئذٍ لن نحصد سوى العار والهزيمة:

سَيَدْرِكُ ابْنُ غَدٍ عَزْماً وَمَقْدَرَةً مَا نَحْنُ عَنْ خَوَرٍ فِينَا نُجَانِبُهُ
فَطَالَمَا جَبَّ عَهْدٌ وَزَرَ سَابِقُهُ كَمَا نَفْسِي الْغَلَطُ الْمَفْضُوحَ شَاطِبُهُ
وَقَدْ تَوَزَّبُ أَسْلَافاً خَلَاتِفُهَا كَمَا تَوَزَّبَ طِفْلاً أَوْ تَعَاقِبُهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٧/٥)

ثم يستمر في مخاطبة قائد الفتح وكأنه يقول إياك أعني واسمعي يا جارة، ويدعو للتأمل والتوقع لما سيسفر عنه الغد الذي يتمخض عنه اليوم المشحون، والموحي بالانفجار، موضحاً أن المستقبل سيزيل العيوب التي تعاني منها الأمة مثل المياه الغزيرة التي تصبح نقية ولا تلوث فيها. وسينهض الجيل أجيال أخرى كما ينهض المتبارزان في حومة القتال:

سَيَسْفِرُ الْغَدُ خَلَّتْهُ شَوَائِبُهُ مِثْلَ الْجِمَامِ انْتَفَتِ عَنْهُ شَوَائِبُهُ
سَيَحْفِزُ الْجِيلَ أَجْيَالٌ تَسَابِقُهُ كَمَا تُطَاعِنُ قَرْنًا أَوْ تَضَارِبُهُ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٧/٥)

ويختم الجواهري رائعته هذه بالتفاؤل بالمستقبل وثقة بهذه الأجيال التي عازمت على السير بالطريق الصائب، وإنها ستصل إلى الغاية المنشودة كما يحدو المسيل المياه إلى غايتها. وأن الصبح لقريب حيث دماء الشهداء أمثال صبحي ياسين ستضيء طريق النصر والفتح للفدائيين الآخرين الذين خرجوا من ظلام الهزيمة ومحتتها، لينطلقوا حاملين مشاعل النور والعزيمة. وأن الغد الواعد بالنصر وتحرير الأراضي الفلسطينية من دنس اليهود والصهيونية قريب جداً للشباب الفلسطيني الواعي الذي لا يحمل همماً سوى قضيته العادلة:

لَسَوْفَ تَحْدُوهُ لِّلْمَغْنَى نَوَاشِطُهُ وَإِنْ تَرَامَتْ طَلِيحَاتٍ لِّوَاغِبِهِ
وَسَوْفَ يَنْجَابُ كَالْإِصْبَاحِ مُقْتَبِلُهُ هَذَا الضَّحَايَا عَزِيزَاتِ جَوَائِبِهِ
مَا أَبْعَدَ الْيَوْمَ عَنْ غَيْرِ يَجَانِبِهِ وَأَقْرَبَ الْغَدَ مِنْ وَاعٍ يَوَائِبِهِ

(الجواهري، ١٩٧٢: ٣٠٧/٥)

النتائج

- أ) إن القصيدة من القصائد ذات "الوحدة الموضوعية" حيث جعلها الجواهري متماسكة في وحدتها وذلك بالرغم من أن الشاعر ينتهج نهج القدامى وأنه تحدث من البداية حتى النهاية عن غرض واحد وهو تمجيد الكفاح والنضال ضد الصهيونية، وقد حاول أن يحافظ على وحدة القصيدة.
- ب) وجدنا ظاهرة "التكرار" بارزة في قصيدة "الفداء والدم" فقد كرّر الجواهري تركيب "جل الفداء" ثلاث مرات في المقطع الأول، و"قائد الفتح" خمس مرات في المقاطع الأخيرة، لتوكيد الفكرة لدى المتلقي وتعظيم الجهاد والتضحيات فضلاً عن الإيقاع الجميل الذي يتكون من هذا التكرار.
- ج) استخدم الشاعر في هذه القصيدة أسلوب الاستفهام والنداء ونوع أنماطهما في سبيل توصيل وتكريس فكرة الكفاح والمقاومة لتحرير فلسطين، مما يدل على قدرة الجواهري الخارقة في تحويل عناصر الجملة.
- د) صوّر الجواهري المأساة الفلسطينية أدق تصوير وصرخ في وجه المستسلمين والمتخاذلين، وحث الشباب الفلسطينيين والعربي على مكافحة الغزاة واسترجاع ما احتل من فلسطين بالقوة على غرار ما فعله الفدائي الفتحاوي الشهيد "صبحي ياسين"، مستخدماً أروع الصور البيانية مثل التشبيه والاستعارة والكناية.
- هـ) اعتبر الجواهري المأساة الفلسطينية دليلاً حياً على عجز وهزيمة الدول العربية وحكامها الذين يتبخترون في أبراجهم الشامخة وحذّر من امتداد لعنة احتلال فلسطين إلى سائر الدول العربية.
- و) وبالرغم من أن الجواهري أكد في قصيدة "الفداء والدم" على أنه لا يكفي أن يهبّ الشعب الفلسطيني وحده لمواجهة العدو، وإنما هم بحاجة إلى من يقف بجانبهم من الفدائيين، لأن الدول العربية لن تكون في مأمن مما يحيط بها، لكنه لم يعوّل كثيراً على الأمة العربية، إذ طلب فيما بعد من الفدائيين ألا يعتمدوا على العرب، لأنهم أصحاب أقوال لا أفعال، وتقتصر نصرتهم لها بالشجب والإدانة.
- ز) لم يقدم الشاعر، الشهيد صبحي ياسين على أنه مواطن فلسطيني ثار من أجل قضايا الفردية المغتصبة، وإنما صوّره ثائراً فدائياً حراً يمثل شعبه وانتفض على

المحتل قدوة للآخرين الذين سيتلحقون بركابه وأن الهدف النبيل الذي ثار من أجله سيتحقق بالعزم والفداء عاجلاً أم آجلاً.

(ح) جعل الجواهري من ذكرى استشهاد صبحي ياسين فرصة مناسبة لإجلال وإكبار الجهاد وحث الفلسطينيين وأبناء الأمة الإسلامية على الاعتماد على قدراتها الحقيقية ومواجهة العدو بالفداء والدم بدلاً من الحوار معه والدوران في فلك أجندته واسترضائه.

(ط) أزال الشاعر القناع عن تخاذل القادة العرب، محملاً إياهم الهزائم التي تلحق بالأمة العربية وانتقد سياسة التطبيع والقبول بالأمر الواقع، وسخر من الحلول الاستسلامية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. آل محبوبة، محمد جعفر (١٩٨٦م). *ماضي النجف وحاضرها*. بيروت: دار الأضواء.
٢. باقر، محمد حسن (١٩٧٣م). *مرجع الشيعة في عصره*. ط٢، بيروت: منشورات المنجد في اللغة والأعلام.
٣. بهاء الدين، جعفر؛ ومراديان، علي أكبر (٢٠١١م). *الالتزام في شعر محمد مهدي الجواهري*. بيروت: دار الكاتب العربي.
٤. الجبوري، عبد الله (١٩٩٣م). *الجواهري: نظرات في شعره وحياته*. بيروت: دار الكتب العلمية.
٥. الجواهري، محمد مهدي (١٩٧٢م). *ديوان الجواهري*. ج١-٧، تحقيق: إبراهيم السامرائي، بغداد: مطبعة الأديب.
٦. حور، محمد (١٩٩٨م). *فلسطين في شعر الجواهري وقراءات في الأدب الحديث*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٧. حينوني، رمضان (٢٠١٣م). «شعر النكسة والرتاء الجديد». *مجلة الحقيقة*، العدد ٢٤.
٨. صالح، محسن (٢٠١٢م). *القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة*. بيروت: الزيتونة للدراسات والاستشارات.
٩. مظفري، سودابة (١٤٣٦هـ). «الجواهري والسلطات الأربع». *مجلة اللغة العربية وآدابها*، السنة ١٠، العدد ٤.
١٠. اليحيى، فرحان (٢٠٠٠م). *أزمة المواطنة في شعر الجواهري*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
١١. موقع "الجبهة" الفلسطيني: سماره، عبد الحكيم (٢٠١٣م). *رجال ونساء من فلسطين*: صبحي ياسين، <http://www.aljabha.org/?i=74238>.